كلمة التحرير

معالم صورة الإنسان بين المرجعيتين الإسلامية والغربية

هيئة التحرير

يتزايد في الآونة الأخيرة ظهور صيغ جديدة لنسج معالم الإنسان ضمن الإحداثيّات الزمانيّة والمكانيّة التي تكتنفه في سياقه التاريخي. ومثل هذه الصيغ تنطلق في تحديد معالم الإنسان المنشود من خلال جملة معايير وضوابط مرجعيّة تحمل في كنفها هندسة عميقة لمقوّمات التعامل مع الإنسان بقدر ما ينحدر نحو التعدّد والتنوّع، وهو ما يفترض مناهج من التعامل مع كلّ أنموذج في سياقاته المكانية والفكريّة والحضارية.

وما من شك في أن ثمة مفارقة بيّنة بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي في النظر إلى الإنسان وتأسيس النظريات العلمية والعملية المتعلقة به؛ إذ برز في الفكر الغربي خلل منهجي وتصوري في تفحّص الإنسان، مما أفقد الإنسان مكانته الاستخلافية المكرّمة؛ إذ اختزلت هذه النظريات الإنسان في بُعده المادي فغدا إنساناً طبيعياً مادياً، وأصبح يُعرّف في إطار مقولات صراعية حول الوظائف البيولوجية، والدوافع الغريزية، والمثيرات العصبية إلخ. وجاء تيار الأنسنة ليثبّت مفهوم مركزية الإنسان في الكون (وخاصة الإنسان الأبيض)، وأن الإنسان هو مرجعية ذاته، وهو الوحيد القادر على إنتاج القيم والأخلاق؛ فأخلاق الإنسان هي ما يقرره الإنسان. ثم جاء فكر ما بعد الحداثة ليقضي على المرجعية والمركز من خلال التفكيك والعدمية؛ مما يفسر حالة الإلحاد التي تجتاح المجتمعات الغربية خاصة.

وتنثال الأسئلة والتساؤلات المتعلقة بالمفارقة بين الفكرين: الغربي والعربي الإسلامي، من مثل: ما المرجعية التي اتكأت عليها تيارات الفكر الغربي في إنتاج صورة الإنسان؟ وما المقاربات المعرفية التي نشأت في عالمنا العربي الإسلامي في إنتاج الصورة ذاتها؟

ولعلنا نلحظ أن مجتمعاتنا قد غدت حقلاً للتصارع بين كلّ الأطروحات التي تسوّق وتشرّع لصورة الإنسان؛ فهناك الصورة المتسلّلة من تراكمات التراث، التي عزّزت من مكانة التقاليد، واختزلت الوجود في صيغه المنصرمة من دون إقدام على التوليف الإجرائي بين لحظات الزمن الثلاث: أمس واليوم والغد، فباتت صورة الإنسان تتنافى والمنهج الاستخلافي المؤسّس للإنسان–الخليفة. وثَمَّة نماذج الجدل بين أنصار الأنسنة المؤمنة وأنصار الأنسنة "الهيومانية" المتحرّرة من مرجعيّة الوحي. ومنها نماذج انبثقت عن تعامل تأريخي–نقدي مع متعلّقات الموروث الثقافي والديني للذات أو الآخر المختلف، ونشأت نماذج فكريّة بشحنات إيديولوجية غريبة عن الفضاء القيمي القرآني. ومنها مراجعات فكرية متشنجة تحوّلت إلى حقل السجالات السياسية جعلت صورة الإنسان خاضعة للخيارات السياسيّة والإملاءات الوافدة، إلى درجة التعسّف في قراءة النصوص المرجعيّة من قرآن وسنّة وسيرة وما تعلّقت بها من أحكام شرعيّة، فتحوّل التشريع من الوحي إلى العقل ومن الإلهي إلى الإنساني، إلى درجة الوصول إلى تأسيس للنموذج الدنيوي للإنسان يثبت مفهوم تاريخانية النص القرآني، وتسللت إلى الأفكار والمناهج والرؤى ثلاثية التأنيس والتعقيل والتأريخ، وغدت الأوساط الثقافية والفكرية والتربوية تبحث في قضايا مهمة حول تشكيل العقل العربي تارة والمسلم تارة أخرى ضمن أسئلة محورية أهمها: ما أهم المراجعات الفكرية التي تمت حول صورة الإنسان في الفضائين: الغربي والعربي الإسلامي؟ وما الخلل المنهجي الذي اعترى مدرستيْ الاستنساخ والإسقاط؟ وما تمثلاته في البيئة المجتمعية؟ وما السمات الأساسية للمنهج القويم الذي نحتاج إلى ممارسته لفك الاشتباك بين تراكمات التراث وقبضة الطارئ المتفوق بعدته المدنية والثقافية، والاحتفاء بخصوصية الزمان والمكان والفعل والمخاطب؟ وما المتطلبات اللازمة لتحقيق التمكن والاستيعاب والمراجعة والتجاوز؟

لقد أظهر الفكر الإسلامي في أصوله التأسيسية (القرآن الكريم والسنة النبوية) والفعل التراثي المتسق مع النص معالم مميزة لصورة الإنسان مفارقةً للرؤية الغربية، ومكانته في الرؤية الكلية، ومكانته في منظومة القيم العليا الحاكمة (التوحيد والتزكية والعمران)، ودوره الاستخلافي الذي كرمه الله به، وغائيته في هذا العالم. فجاءت هذه الصورة على

مسافة واضحة تفصله عن المتعالي المتجاوز، على حد تعبير المسيري، مما يمنحه الحرية المسؤولة، ولكنّه يشترك مع الكائنات في بعده المادي، مما أسماه عبد المجيد النجار، بوحدة التكوين، فهو تجليات مكونين: روحي/مادي. وبناء عليه، ثمة حاجة كبيرة إلى الكشف عن تجليات هذه الرؤية الإسلامية الحضارية في فعل الاستخلاف البشري في الأرض، وتَبيُّن انعكاساتها على بناء الشخصية الإسلامية القادرة على الفعل الحضاري.

إن صورة الإنسان كما يستهدفها الوحي الإلهي ويمارسها الهدي النبوي لا تفارق مكانة التكريم والتزكية، لجسمه وعقله وروحه، في المال والبنين والأسرة، وفي الفرد والمجتمع والأمة، حتى إننا نرى التزكية قيمة حاكمة عُليا لا تنفك عن قيمة التوحيد وقيمة العمران. وبين هذه القيم الثلاث: التوحيد والتزكية والعمران من وشائج التداخل والتكامل ما يقدم للإنسان صورة عن نفسه تمتلئ بالثقة والقدرة على تحقيق مقاصد الحق من الخلق. والمقصد الأعظم من التشريع الرباني لحياة الإنسان في هذا العالم –كما يقول الطاهر بن عاشور– هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الانسان ودفع فساده؛ فهو المهيمن على هذا العالَم، وصلاحُ أحوالِه صلاحُ أحوالِ العالَم. ولذلك ربطت مقاصد الرسالة الربانية الخاتمة بين تلاوة الكتاب، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة. فعن التزكية التي يتحقق بها الإنسان في عقله ونفسه، تنبثق سائر أفعاله وتصرفاته وأساليب حياته، ومن دون هذه التزكية يختل بناء العمران البشري كما أراده الله وتتوجه حركة الحياة والحضارة في اتجاهات تصادم فطرة الإنسان، وينتشر الفساد، ويسود الظلم، وتنعدم العدالة. فكيف نفهم نصوص الوحي الإلهي والهدي النبوي حول مفهوم التزكية، وقيمة التزكية وتكاملها مع القيم الأخرى، وانعكاسات هذه القيمة على صورة الإنسان في الفكر الإسلامي والنهوض الحضاري المنشود؟

لقد أسهمت النظريات الاجتماعية والفلسفية الغربية المادية في مسخ الشخصية الإنسانية عامة، وحصرها في بُعد أحادي كما عبّر عنه بعض المفكرين الغربيين، انطلاقاً من مركزيّة غربيّة استعمارية ترسّخ صورة الإنسان الغربي المتفوق والأسمى. ونحسب أن البدائل المنشودة لهذه النظريات كامنة في النَّصِّ القرآني عند استرجاع مفهوم الآدميّة

والتعارف والمشترك الإنساني. وقد قدّم بعض المفكرين المحدثين والمعاصرين المسلمين تصورات معرفية وثقافية للإنسان بشكل عام والإنسان المسلم بشكل خاص ضمن مشروع حضاري يهدف إلى التخلص من قيود النظريات الغربية. ونذكر من هؤلاء المفكرين على سبيل المثال لا الحصر: الغزالي، وإقبال، ومالك بن نبي، والفاروقي، وعلي شريعتي، وبيجوفيتش، وجارودي، والمسيري، وطه عبد الرحمن وعبد الحميد أبو سليمان، وغيرهم. فهؤلاء تجمعهم مدرسة فكرية توحيدية تكاملية تستعيد صورة الإنسان بطبيعته الاستخلافية المزدوجة المادية/الروحية التي توظف مناهج مركبة. وكان لهذه الجهود موقعُها في مثاقفة النظريات الحديثة والعودة إلى الذات، في سبيل تأسيس متن عربي إسلامي في التعامل مع الإنسان وتفحّص ماهيته ومكانته ومقصدية وجوده مع توظيف نقدي رشيد للمنتج المعرفي البشري. وهذا يستدعي جهوداً جماعية في تفحُّص معالم المشاريع والبدائل المعرفية النهضوية الحاضرة في الساحة الفكرية المعاصرة، والكشف عن دورها في البناء الحضاري، وتلمُّس سمات المناهج التي تقترحها في سبيل رسم صورة الإنسان.

هذه إشكاليّات بعضها حقيقي وبعضها الآخر مصطنع، تحتاج إلى النظر والدراسة والمراجعة، والتناول العلمي الرصين، وتقديم رؤى تحليليّة ونقديّة، بغية إنشاء صورة حضارية للإنسان–الخليفة ووضعها في مناطق الضوء، لتكوين خطاب إصلاحي مؤسس على الانفتاح والتواصل والحوار يكون بديلاً عن ردود الفعل المتشنجة والمقاربات التبسيطيّة–المختزلة للخروج من شرنقة الأزمات الحافة بأنموذج الإنسان. ويتطلب هذا الخطاب بناء استراتيجية علمية بحثية (قصيرة ومتوسطة وطويلة) قادرة على رسم أهداف محددة تجاه موضوع الإنسان، من مثل:

– تفكيك صورة الإنسان في المنظومة المعرفية الغربية، لتبيّن أسسها ومنطلقاتها وغاياتها وانعكاساتها على المجتمع الغربي خاصة والمجتمع الإنساني. وإظهار الخلل الذي اعترى المناهج الغربية في التعامل مع سؤال الإنسان.

– التعرف إلى البرامج والمشاريع التي تبنّت سؤال الإنسان، وتقويمها في مختلف المجالات المجتمعية.

– الكشف عن مقصد القرآن الكريم في تكريم الإنسان وتزكيته، وتجليات هذه المقصد في الرؤية الحضارية الإسلامية للإنسان وغاية وجوده، ومهمته الاستخلافية.

– بيان الجهود التي قدّمها المفكرون المسلمون المعاصرون في التأسيس لدراسات حضارية تعيد للإنسان مكانته وكرامته في هذا العالم.

– تأسيس برامج مخابر ومقاييس جامعية تهدف إلى بلورة تصوّر حضاري تجاه الإنسان، منبثق عن البنية المعرفية للأمة، ومتسق مع الهدي الربّاني والفطرة البشرية.

ويأمل المعهد أن تتواتر الملفات التي تناقش موضوع الإنسان وعلاقته الممتدة بالرؤية الكلية (تجاه ذاته وتجاه الكون وتجاه خالقه)، لكي يسهم الفكر الإسلامي المعاصر في الكشف عن مفهوم الإنسان ومكانته في النصوص التأسيسية والتراث والفكر الإسلامى المعاصر، وموقع مقصد تزكية الإنسان في المقاصد القرآنية، والقدرة على تفكيك الرؤى الغربية في تعاملها مع الإنسان. ولا بدّ للفكر الإسلامي من أن يضع لبنة مهمة في الإسهام الحضاري من خلال التطبيق؛ إذ يقوم بتأسيس برامج ومشاريع وخطط عملية لبلورة تصورات مستقبلية للإنسان المستخلَف ضمن الرؤية الحضارية. وبناء البرامج القادرة على بناء الشخصية الإنسانية على مختلف الأصعدة والمستويات: على مستوى البرامج الأكاديمية الجامعية: مناهج، مخابر، مقاييس، مواد دراسية إلخ؛ وعلى المستوى التعليم العام: السياسة التعليمية، كتب ومناهج مدرسية، نشاطات مدرسية، البيئة المدرسية، إلخ؛ وعلى المستوى الإعلامي: الفلسفة الإعلامية المتصلة بالإنسان، البرامج الثقافية والترفيهية، الذات والآخر المختلف في الإعلام العربي؛ وعلى المستوى الاجتماعى: الدراسات الاجتماعية المهتمة بالإنسان ومعالجة قضاياه؛ وعلى المستويات الأخرى في مختلف المجالات: الحقوق والاقتصاد والعلاقات الدولية والأدب والعلوم الطبيعية والتطبيقية وغيرها.

والله ولي التوفيق